19me, année No 930
Le Caire 30 — 4 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٣٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رجب سنة ١٣٧٠ — ٣٠ إبريل سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

قاسم أمين*

أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ — ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨

بمناسبة ذكراه السنوية

فى مثل هذا اليوم من عام ثمانية وتسعمائة وألف انتقل إلى دار البقاء المصلح العظيم قاسم أمين بعد أن قضى فى هذه الحياة أربعا وأربعين سنة يستمد للكمال النفسى الذى تهيأ له بفطرته، ويدعو إلى الكمال الإنسانى الذى اتجه إليه بفكرته. وكانت الفترة التى نشأ فيها بعد هزيمة المصريين وانتصار المحتلين أشبه شىء بالفترة التى تأخذ من أواخر الشتاء وأوائل الربيع، فيها الخدر والبرد والجدب، ولكن فيها أطرافا من الحس والدفء والخصوبة؛ فالشعب كان يعانى من عواقب الأزمان السود التى أتت عليه، ومن رواسب الأجناس السوء التى عاثت فيه، ألوانا من الجهل والذل والفوضى جعلته يستكين لعوامل الفساد فى الخلق والعقيدة والثقافة والمجتمع. فالحكم أهواء وشيع، والدين أوهام وبدع، والعلم قشور ومسخ، والأدب تقليد وزخرف، والرجال آلات للعمل والانتاج، والنساء إماء للخدمة والمتاع، والسلطان المحتل يصرّف أمورنا على مشيئته، والمال الأجنبى يستغل مواردنا لمنفعته. وكانت البراعم التى بكرت إليها حياة الربيع فتفتحت عن الشعور والوعى تتمثل فى الرواد الأولين: جمال الدين، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ولطفى السيد، وعبد العزيز فهمى، فشعروا أول الناس بالأدواء التى قعدت بالأمة عن النهوض، فجاهد كل منهم وقاد فى الميدان الذى خلق له وظهر فيه

ومما عمّق فيهم هذا الشعور وقواه، نبوغ أكثرهم فى القانون والأدب، وتفوق بعضهم فى الدين والفلسفة، وأخذهم بنصيب من ثقافة الغرب، واتصالهم بأقطاب الفكر فى فرنسا وإنجلترا، ووقوفهم على تلك الحملة المنكرة التى شنها أبالسة الاستعمار على مصر والعرب والإسلام، فنهض جمال الدين لإرنست رينان، ومحمد عبده لهانوتو، وقاسم أمين لدوق داركور، فنافحوا بالحجج الملزمة ما لفقوا من أباطيل وأنكروا من حقائق. فلما بلغوا المآخذ التى أخذها الخصوم علينا بالحق، حاول الإباء القوى أن يأخذوا عليهم أعباءها فى مجتمعاتهم ومعتقداتهم، كالمقابلة بين تعدد الزوجات هنا، وتعدد الخليلات هناك. ولكن هذا الإباء القوى نفسه حملهم كذلك على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ، بتصحيح الزائف، وتقويم المعوج، وتقييد المطلق، فمضى كل زعيم يتحرى وجوه الإصلاح

* الكلمة التى ألقيت فى احتفال الاتحاد النسائى بذكرى قاسم امين

والتحرر فى الوطن ، أو فى الدين ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى الرجل ، أو فى المرأة ، على حسب استعداده وطبيعة نفسه

* * *

كانت رسالة قاسم إصلاح المجتمع فى نواحيه المختلفة . وما كان فى خلقه ولا فى طوقه أن تكون رسالته غير ذلك . كان حيي الوجه ، يحتشم إذا لاق ، ويغضى إذا حدّث ، ويعف إذا جادل . وكان عطوف القلب ، يدين بالصداقة ، ويتخلق بالرحمة ، ويواصل بالمودة . وكان رقيق الشعور ، يكلف بالأدب ، ويطرب للغناء ، ويعجب بالجمال . وكان عصبي المزاج ، ينفعل انفعال الفنان ، وينبسط انبساط المؤمن ، وينقبض انقباض الناسك . وكان محببا إليه العشرة ، يخالط كل طبقة ، ويسبر كل حالة ، ويرقب كل حادث . وكان واسع المعرفة والخبرة ؛ يتقصى طبائع الشعوب ، ويدرس أحوال الأمم ، ويتعرف دخائل النفوس . وهذه هي جل الصفات التي يجب أن تكون فى المصلح الاجتماعي ليكون بينه وبين مجتمعه تجاوب فى الشعور والفكر

عُنى قاسم رضوان الله عليه بإصلاح المجتمع المصرى وهو فى سن العشرين منذ قرأ كتاب داركور ورد عليه فى عام ١٨٩٤ ، فكتب فى جريدة المؤيد تسع عشرة مقالة أكثرها بعنوان (أسباب ونتائج) وبعضها بعنوان (حكم ومواعظ) عالج فيها أدواء المصريين فى الاقتصاد والوقف والتربية والتعليم والأسرة والوظيفة علاجا لا يزال المصلحون يصفونه ويكررونه ، لأنه جمع أكثر العناصر الفعالة فى حسم الداء وبرء المريض . وقلما نجد كاتبا يعرض اليوم لهذه المسائل ولا يقع على خطاه ، أو يوافق على ما ارتآه

كان هذا المفكر العظيم يكتب عن إيمان وصدق . لا يكتب رغبة فى الكتابة ، ولا ينشر طمعا فى الشهرة ؛ إنما كان ينشر مقالاته فى الصحف من غير إمضاء ، ويرسل فكرته فى الناس من غير ضوضاء ، ثم لا يعنيه إلا أن يراها تصيب الغرض الذى قصده ، وتحدث الأثر الذى أراده

وكان صاحب رأى وعزمة ، يقول ويفعل ، ويفكر ويدبر . فإذا قرأنا رأيه فى كتابين قيمين : تحرير المرأة والمرأة الجديدة ، فقد رأينا عزمه فى عملين عظيمين : الجمعية الخيرية الإسلامية ، والجامعة المصرية

وكان ينفذ ببصره وفكره إلى طوايا المجتمع فيرى بقوة لحظه وحدة ذهنه دقائق وتفاصيل لا يدركها النظر العادى . ومزية الكاتب الموهوب أن يُرينا ما لم نر ، ويقفنا على ما لم نعلم ، ويصور لنا ما لم نتصور ، وفى كلمات قاسم أمين المنشورة آيات من الحوار والتصوير مثل بهما طرفا من نقائص المصر تمثيلا دل على ملكة أصيلة فى الأدب ، وقريحة سخية فى الكتابة . نقرأ له مثلا هذا الحوار القصير :

سئل ح . بك : ما رأيك فى كتاب تحرير المرأة ؟

فأجاب : ردئ !

— هل قرأته ؟

— لا !

— أما يجب أن تقرأه قبل أن تحكم عليه ؟

— ما قرأت ولا أقرأ كتابا يخالف رأيى !

وتقرأ له هذه الصورة الناطقة لجنازة من جنائز العامة :

« هؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا ، وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ، يمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثيابا قذرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختلفة بنغمات شنيعة ؛ وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ، ويلتفت تارة إلى جهة اليمين ، وتارة إلى جهة الشمال ؛ وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن بالتراب رؤوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه إشارات مروعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ! ما هذا كله ؟ أمجمع مجانين ، أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ، أم معرض كرنفال ؟ »

نقرأ ذلك الحوار ، ثم نقرأ هذه الصورة ، فنعتقد أن لو مد الله فى أجل قاسم لعالج عيوب المجتمع بالرواية كما فعل (موليير) ، أو بالصورة كما صنع (لابروبير) . والأدب العالى والأسلوب البليغ أخص صفات المصلح وأقوى أدوات الإصلاح ؛ وحظ قاسم منهما كان موفوراً . وكما يتعهد الجندى سلاحه ، كان قاسم يتعهد اللغة والأدب ، فرأى فى أصالة الأسلوب ، واستعمال المترادف ، ومعضلة الكتابة العربية ، ومشكلة اللغة العامية ، وصعوبة

الإعراب ، وفتح باب الاجتهاد فى اللغة ، آراء لم تجر على بالنا إلا اليوم ! والصفحات الستون التى جمعت (كلمات قاسم أمين) الموجزة فى الأدب والاجتماع ، أمثلة خالدة من عمق التصور ودقة التصوير

ثم ! عنى قاسم أمين بإصلاح المجتمع المصرى فى خلقه وعاداته ، ونظمه واقتصادياته ، وتربيته وتعليمه ، ولغته وأدبه ، ولكنه رأى أن علة العلل فى فساده هى حال المرأة . والمرأة قوام الأسرة ، والأسرة نواة الأمة ؛ فإذا صلحت المرأة صلح الرجل ، وإذا صلح الرجل صلح المجتمع . والنساء نصف الشعب الذى يربى نصفه الآخر ؛ فإذا ظللن محجوبات جاهلات متعطلات ، ظل المجتمع رَيِضا (١) لفقدانه تثقيف الأمومة ، عليظا لحرمانه تلطيف الأنوثة . يعمل بيد واحدة لأن الأخرى شلاء ، ويمشى على قدم واحدة لأن الأخرى عرجاء . وكانت المرأة فى عهد قاسم شيئا لا يذكر ، وإذا ذكر لا ينظر ؛ إنما كانت حبيسة المنزل ، تضرب عليها الحجب ، وتبث حولها العيون ، وتُقضى من دونها الأمور ، وينظر إليها الزوج نظره إلى الفراش اللق ، فلا يؤا كلها على مائدة ، ولا يجالسها فى بهو ، ولا يماشيها فى شارع ، ولا يشاورها فى شأن ، ولا يذكر اسمها إلا مكنيا عنه بالبيت أو الأولاد أو الجماعة . وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها . لقد كانت خارجة عن دنيا الناس ، « فلم يبق لها من الكون — كما قال قاسم فى كتابه (تحرير المرأة) — إلا ما استتر من زوايا المنازل . واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعا للذة ، يلهو بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطريق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الأمر والنهى وعليها الطاعة والصبر . له كل شىء فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه »

بذلك تأثر قاسم ، وفى ذلك جاهد قاسم . فعرض القضية على وجوه المعقول والمنقول ، فلم يجد لاستعباد المرأة حجة إلا استبداد الرجل ، فجاءه من طريق الدين والمروءة والمصلحة وفى يديه كتاباه : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، يزيف بهما حجته ، ويخفف غروره . وكان لابد لمن يخالف المألوف ويعارض الموروث ويصادم الواقع أن يلقى مالقيه المرسلون والمصلحون من عنت الجدل ولدد الخصومة . ولكن محرر المرأة كان قوى الإيمان برأيه ، شديد الإخلاص فى سعيه ، فلم يهن لما أصابه فى سبيل الحق ولم يستكن . وإنما بذر البزرة فى وسط العواصف الهوج والسحب المرعدة ، ثم تركها فى ذمة الطبيعة والزمن . وضن الرجل العنيد على هذه البزرة بالغذاء والرى ، حتى أدركها غوث الله ، فانتشر التعليم ، وانتعشت الحرية ، واتصل الجيل الجديد بالمدنية الغربية ، فرأى فيما رأى أن المرأة فى المجتمع الأوربى هى روحه ونشاطه وجماله وصقاله ووحيه ، فاستشعر للمصرية الاحترام ، عن تقليد فى الأكثر ، وعن اعتقاد فى الأقل ؛ ولكنه وقف من قضيتها موقف الشاهد المحايد لا يمر ولا يحلى . وكانت صفوة من كرائم السيدات قد تحررن ، بكرم النسب ، أو بسلطان المال ، أو بقوة العلم ، فأقبلن على بزرة قاسم يتعهدنها بالسقى حتى أزهرت ، وعلى شعلته يمددنها بالزيت حتى أسفرت . وفى ظل هذه الشجرة ، وعلى ضوء هذه الشعلة ، تألف (الاتحاد النسائى) ، فكان فى النهضة الحديثة قوة عاملة ظهر أثرها فى التشريع والتعليم والمواساة

وقويت المرأة المصرية بتقدم المدنية وشيوع الثقافة ، فحلت قضيتها بنفسها على الرغم من معارضة الرجل

كان الرجل يأنف أن يشرك امرأته أو يشاورها فى شأن من شؤون عمله أو منزله ؛ فأصبحت اليوم ولها من القوة ماتسيطر به عليه : فهى تدبر له العيش ، وتحدد له السلوك ، وتختار له

---

(١) الريض على وزن سيد : المهر قبل أن يذلل ويعلم السير . يستعار للشاب المرسل على غرائزه قبل أن يهذب

الصديق ، وتنفق له الثوب ، وهو لا يسعه إلا أن يلازم ويتابع ، فلا ينفرد إلا بإذنها ، ولا يغيب إلا بعلمها ، ولا يتقدم عليها في ترتيب ، ولا يفصل من دونها في خلاف ، ولا يتعدى في مناقشة الميزانية المنزلية حدود الإيراد

وكان الرجل يمنع امرأته من أن تخرج ، فأصبحت اليوم ولها من السلطان ما تمنعه به إذا شاءت من أن يدخل .

وكان الرجل يرفض أن تتعلم المرأة الكتابة مخافة أن تتصل عن طريقها بالخارج ، فأصبحت اليوم ولها من الثقافة ما تنافس به الرجل في المحاماة والطب والأدب والصحافة

وكان الرجل يأبى على زوجته أن تسفر عن وجهها في الطريق ، فأصبحت اليوم ولها من الحرية ما تسفر به عن جسمها على الشاطئ

وكان الرجل يكره أن تقرع المرأة باب الصالون على ضيوفه ، فأصبحت اليوم ولها من الجرأة ما تقتحم به سور البرلمان على نوابه !

وهكذا ترعرع غرس قاسم ، وأضاءت شعلة قاسم ، ولكن دعوته أسرعت في طريق وأبطأت في طريق : أسرعت في الحرية والسفور حتى كادت تخرج عن الحد ، وأبطأت في تضييق الزواج وتقييد الطلاق حتى كادت تنقطع عن السير . والعجيب أن المطلبين اللذين نجحا كانا مثار الخلاف والسخط ، والمطلبين اللذين فشلا كانا موضع الوفاق والرضا . والعلة في السرعة أو النجاح هنا ، وفي البطء أو الفشل هناك ، أن الحرية والسفور أمرهما بيد المرأة ، وأن تضييق الزواج وتقييد الطلاق أمرهما بيد الرجل !

سيداتي أعضاء الاتحاد النسائي !

إنكن تحتفلن اليوم بذكرى وفاة قاسم أمين ، وإنه لوفاء منكن أن تمجدن ذكرى رجل قضى خمسا وعشرين سنة من عمره القصير ، يسعى لكن ، ويدافع عنكن ، ويحتمل الأذى في سبيل أن يعترف الرجال بحقكن في الحياة ومكانكن من الوجود . ولم ينصرف إلى جوار الله إلا بعد أن رسم لكن خطة الجهاد ، ووضع لكن دستور هذا الاتحاد . ولكن أجل الوفاء أن تتبعن الطريق الذي نهجه ، وتنفذن الدستور الذي وضعه . كان قاسم يطلب لكن الحرية من غير شطط ، والسفور من غير تبرج ، والاختلاط من غير ريبة ، وممارسة الحقوق في نطاق الواجب ، ومزاولة الأعمال في حدود التخصص . وإن كتبه لتشهد على أنه لم يطلب لكن شيئا يناقض الدين ، أو يعارض الخلق ، أو يجافي التقاليد . والسيدة زوجه ، وهي من أفهم الناس لدعوته ، وأعلمهم بنيته ، تقول في حديث لها : إن فتيات هذا الجيل قد أسأن فهم هذه الدعوة وتجاوزن مداها ؛ فإن قاسما لم يدع إلا إلى السفور الشرعي والاختلاط المقيد . وإنه ليحزنني أن يحمّله الناس أوزار هذه الحال . وأعتقد أنه لو كان حيا لرأى في تبرج الفتاة فسوقا عن دعوته وزيغا عن سبيله

فأنتن ياسيداتي خليقات أن تنقين مبادئ قاسم من شوائب الهوى والغي . وإنكن لتعلمن أن جوهر هذه المبادئ قيام الأمر بين الزوجين على المودة والرحمة ، وبين المتعاملين على الصداقة والتعاون ، وبين المواطنين على الدين والخلق ؛ وأن التربية والتعليم والسياسة والحكم يجب أن تصدر عن هذا المبدأ وتتوافى عند هذه الغاية . والناس يقولون إن المرأة وهي معنى الوئام والحب في الأمة ، أصبحت عاملا من عوامل التنافر والفرقة في الأسرة ؛ وإن أسباب الطلاق بعد أن كانت تعزى إلى استبداد الزوج ، أصبحت تعزى في الغالب إلى استهتار الزوجة . وقد زعم المحصون أن عدد المطلقات بلغ في بعض السنين الأخيرة خمسة وسبعين ألفا خرجن من دار الزوجية لأسباب يسأل الرجل عن أكثرها في بيئة العامة ، وتسأل المرأة عنها كلها في بيئة الأوساط والخاصة . فعالجن ياسيداتي الزعيمات جموح الفتاة كما عالج زعيمكن العظيم عناد الفتى ، واحملن المرأة الجديدة على أن تذكر الواجب حين تذكر الحق ، وأن تفكر في الكون العام حين تفكر في الكون الخاص . سدد الله خطاكن في الطريق القويم ، وأكرم مثوى المصلح العظيم في دار النعيم !

أحمد حسن الزيات